

الباب الثانى

نقد المذهب الماركسى

فى الصفحات السابقة قدمنا عرضا موجزا وسريعا للنظرية الماركسية فى مختلف جوانبها : الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية ، وقد تحرينا فى ذلك العرض الحيدة التامة والموضوعية المطلقة ، فقد اعتمدنا فيه على المصادر الماركسية نفسها .

وهذا هو المنهج الذى التزمناه فى عرض هذا المذهب وتحليله لثقتنا بأنه هو الأجدر بالاتباع عند تناول المذاهب المخالفة : تعرض أولا عرضا نزيها بموضوعية تامة اعتمادا على مراجعها الأصلية ، ثم يوجه إليها الباحث بعد ذلك سهام نقده .

وتحن نبدأ الآن هذه المرحلة الثانية التى تكمثل فى نقد المبادئ الماركسية ومناقشتها .

ونحن اذ نستعرض هذه المبادئ نجد أنها تقوم على دعائتين أساسيتين هما : المادية والجدلية .

وسنبدأ بنقد هذين المبدأين أولا : ثم نناقش بعد ذلك الجوانب الأخرى التى تحتاج الى مناقشة .

أولا : المادية :

لقد عرفنا من قبل أن المذهب المادى ليس من ابتداء « كارل ماركس » بل هو مذهب يضرب فى أغوار الماضى السحيق - وجد عند الهنود القدماء ، وعند الاغريق متمثلا فى الطبيعيين الأولين وفى المذهب الذرى - ووجد أيضا عند العرب فى

جاهليتهم ويسمى أتباعه بالدهرين لقولهم كما يحكى القرآن عنهم : « ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » (١) - وهم الذين يقول قائلهم : « ان هي الا أرحام تدفع ، وأرض تبلع وما يهلكنا الا الدهر » - كما أن المذهب المادى قد تبناه أيضا كثير من الفلاسفة المحدثين .

هذا المذهب الذى ينكر كل ما عدا المادة المحسوسة كان له أنصاره فى القديم ولا يزال له أتباعه فى الحديث ، وأبرزهم وأشدهم خطورة هم الماركسيون .

ونحن اذ نههدف الى هدم المذهب الماركسى ينبغي أن نعمل معاولنا أولا فى تقويض المذهب المادى - وهو أساس الماركسية - فاذا نحن قوضنا الأساس انهدم البنيان .

وتقويض المذهب المادى سهل ميسور لا يحتاج الى كثير عناء .

فالمذهب المادى ينكر كل ما هو مجرد عن المادة ، فهو ينكر وجود الله تعالى - لأنه لا يدرك بالحواس - وينكر أيضا جميع الغيبيات والسمعيات من ملائكة وبعث وجنة ونار . الخ .

وما أسهل نقذ المذهب المادى والرد عليه ، وسنكتفى بالردود الآتية :

١ - الماركسيون يعترفون بوجود « الفكر » - وهو عندهم يعنى النشاط المعنوى للانسان الذى يشمل آراءه ومعتقداته وعواطفه وانفعالاته وشخصيته وكل ما لا يخضع للتشريح المادى فى الانسان - وهذه الأشياء كلها غير مادية ، واعتراف الماركسيين بوجود هذه الأشياء يتضمن اعترافا بوجود ما هو مجرد عن المادة .

(١) سورة الجاثية - الآية (٢٤) .

وادعاء الماركسيين أن الفكر طور من أطوار المادة هو ادعاء لم يقيم عليه دليل - هو مجرد افتراض وخبط واعتقاد فى أمور لم يقيم عليها دليل علمى .

٢ - يذهب الماركسيون الى أن المادة تسبق الفكر فى الوجود وأن الفكر طور من أطوار المادة - وان لنا أن نسائل الماركسيين - من الذى أوجد المادة ؟ ان النظام البديع الذى يحكم هذا الكون ، وهذا التناسق بين أجزائه ، والجمال المنبث فى أنحائه - ان ذلك كله لينبىء عن وجود قوة وراء هذه المادة المحسوسة - هذه القوة هى التى أبدعت ونسقت وجملت ودبرت ونظمت ، فان المادة بذاتها عاجزة عن الابداع والتنسيق والتجميل والتدبير والتنظيم - تلك القوة هى ما يطلق عليه الدين اسم « الله » .

٣ - ان القول بأسبقيّة المادة على الفكر فى الوجود قول يعوزه الدليل العلمى ، فهم لم يشهدوا كيف بدأ الخلق حتى يحكموا هذا الحكم ويقطعوا هذا القطع - والماركسيون لا يؤمنون الا بما يخضع للتجربة العلمية القائمة على الحس والملاحظة والمشااهدة - وهذا الموضوع لا يخضع لذلك - بل هو غيب من الغيب الذى لا يؤمنون به - ونحن نلزمهم ونفحمهم فنقول : اما أن لا تؤمنوا بما هو غيب لا يدرك بالحس فلا معنى اذا لأن تحكموا بأسبقيّة المادة على الفكر ، لأن هذا الأمر لم تشاهدوه ، واما أن تؤمنوا بما هو محيب لا يدرك بالحس فعليكم أن ترفضوا اذا المذهب المادى الذى هو أساس مذهبكم الماركسى .

٤ - ان انكار وجود ما لا يدرك بالحس يتعارض مع النتائج العلمية - والماركسيون يدعون أنهم يؤمنون ايماناً (م - ٥ الفكر الماركسى)

مطلقا بالعلم ونتائجه - وقد أثبت العلم وجود أشياء كثيرة موجودة حولنا ولا يدركها الحس .

من بين هذه الأشياء « الميكروب » الذى لا يرى الا « بالميكروسكوب » والذى لم يكتشف الا بعد اختراع هذا الجهاز ، فالميكروب كان موجودا من قبل ولا يحس به أحد ، فما الذى يمنع من وجود أشياء مجردة عن المادة لا يحس بها أحد .

ان موقف هؤلاء الذين ينكرون المجردات يشبه موقف أجدادنا الذين لو قيل لهم ان هناك شيئا أسمه « الميكروب » لأنكروه لأنهم لم يشاهدوه .

ان عدم قدرتنا على ادراك شىء بحواسنا لا ينفى وجود ذلك الشىء فان عدم ادراك أجدادنا بحواسهم للميكروب لا يقوم دليلا على عدم وجوده .

ولقد اثبت العلم أن ما يدرك بالحس من المواد لا يمثل الا ٧ ٪ فقط من مجموع المواد .

واذا كان الأمر كذلك فما الذى يمنع من وجود أشياء غير مادية لا تدرك بالحس ؟ .

٥ - ان انكار وجود الله - وهو القضية الأساسية للمذهب المادى - هذا الانكار يتعارض مع النتائج العلمية الحديثة - ولا يزال العلم الحديث يؤكد كل يوم وجود قوة مدبرة لهذا الكون ، قوة خالقة غير مرئية .

العلم الحديث يثبت أن هذا العالم له بداية - وهذا يعنى

أن له خالقا • فقد ثبت علميا أن كفاءة عمل الكون تتناقص يوما بعد يوم ، وأن حرارة الكون تتناقص شيئا فشيئا - وإذا كان الأمر كذلك فسيأتى يوم ينتهى فيه هذا العالم وكل ما له نهاية له بداية ، وكل ما له بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته بل لابد له من خالق •

وبالإضافة الى هذا فإن علم الفلك يقرر أن الكون يزداد اتساعا يوما بعد يوم ، وأن الأجرام السماوية تتباعد باستمرار وبسرعة ، فالكون يتمدد ويتسع بسرعة أكثر من مائة ميل فى الثانية الواحدة وقد أصبح حجمه الآن أكثر من حجمه عشر مرات منذ بدايته - وفى هذا مصداق لقوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيدى وانا لموسعون » (١) •

ونحن نستخلص من هذا نتيجتين :

النتيجة الأولى : أن الكون كان شيئا واحدا ثم تباعدت أجزاؤه بعضها عن بعض - وهذا يعنى بالتالى أن له بداية أى أن له خالقا وهو مصداق قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » (٢) •

النتيجة الثانية : أنه كلما ازداد اتساع الكون ضعفت الجاذبية حتى تتلاشى فتخرج الأجرام عن أفلاكها ويصطدم بعضها ببعض ، وبهذا ينتهى الكون - وكل ما له نهاية له بداية أى له خالق وموجد وهذا مصداق قوله تعالى : « اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت ، واذا البحار فجرت واذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت » (٣) •

(١) سورة الذاريات • الآية (٤٧) •

(٢) سورة الأنبياء • الآية (٣٠) •

(٣) سورة الانفطار • الآيات (١ - ٥) •

فالعالم الحديث اذا يهدم من الأساس المذهب المادى الذى ينكر وجود الله الخالق ويزعم أن المادة هى التى أوجدت نفسها .

وصدق الله العظيم : « أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون » (٤) .

٦ - المذهب المادى يرى أن بدء الانسان ومشاعره وعواطفه وانفعالاته وأفكاره ومعتقداته قد جاءت كلها نتيجة ترتيب رياضى اتفاقى فى نظام الذرة ، وأن الموت ينهى حياة الانسان ولا تستطيع أية قوة احياه مرة أخرى - وأن مجهودات الانسان وتضحياته وبطولاته وفنونه الجميلة وعلومه ستندفن كلها الى الأبد مع انتهاء هذا الكون .

ففى ضوء المذهب المادى يفقد كل شئ جميل معناه وأهدافه ولا يبقى سوى التشاؤم والظلام - وفى ظلال الدين يحس الانسان بجلالة التفاؤل والأمل ، فالحياة ذات هدف ، وكذلك الموت - وكل ما هو جميل من عواطف ومشاعر وعقائد وقيم وأفكار سامية وتضحية - يجد له مكانا فى ظله .

والعلماء حين يوازنون بين فكرتين يختارون تلك التى تفسر المسائل المتنازع عليها بطريقة أكثر بساطة ويسرا . ونحن حين نوازن بين المذهب المادى والدين نجد أن الأول يفسر الكون بطريقة معقدة مبتورة ، اذ يبقى كثيرا من الأمور غامضة وبدون تفسير - أما الدين فإنه يفسر الكون وما وراءه بطريقة سهلة ميسورة شاملة ، لا تدع أمام الانسان مسائل غامضة أو معلقة ، وهو بهذا يرضى العقل ويشبع العاطفة .

(٤) سورة الطور ، الآيتان (٣٥ - ٣٦) .

٧ - ولكن اذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يسلم العلماء
بصحة الدين ؟

أن التعصب المقيت ضد الدين هو الذى يحول بينهم
وبين ذلك .

ويقول أحد العلماء الانجليز : « ان فى عقولنا تعصبا يرجح
التفسير المادى للحقائق » . ويصرح عالم آخر بأنه بينما
كان ينظر الى أذن ابنته الصغيرة أخذ يفكر فى أنه من المستحيل
أن يوجد شيء معقد ودقيق كهذه الأذن بمحض الصدفة ، بل
لابد أنه جاء نتيجة ارادة ذات تدبير . ثم يصرح بأنه
لم يلبث أن طرد هذه الفكرة الخبيثة حتى لا يضطر الى
الايمان بالله .

وقد بقيت نظرية « التطور العضوى » حتى يومنا هذا
بدون أدلة علمية - ومع ذلك يصرح كثير من العلماء : « أنهم
لا يؤمنون بهذه النظرية الا لأنه لا يوجد أى بديل عنها سوى
الايمان بالله مباشرة » .

ويصرح عالم أمريكى بقوله : « ان كون العقيدة الالهية معقولة ،
وكون انكار الاله سفسطة لا يكفى ليختار الانسان جانب
العقيدة ، فالناس يظنون أن الايمان بالله سوف يقضى على
حريتهم العقلية ... فأية فكرة تحد من هذه الحرية تثير
الوحشة لديهم » .

وصدق الله العظيم : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما
وعلوا » (٥) .

(٥) سورة النمل - الآية (١٤) .

٨ - ان القول بأن الدين ايمان بالغيب فى حين أن العلم ايمان بالملاحظة العلمية قول باطل ، فالعلم أيضا يؤمن بالغيب - فمثلا نظرية التطور العضوى التى يكاد يجمع العلماء على صحتها - لم يلاحظها أحد منهم ولم يجربها فى معمله ، اذ أنها تتعلق بماض سحيق ، ومع ذلك فقد جعل العلماء منها - وهى غير قابلة للتجربة - حقيقة علمية ، وذلك لعدة أسباب : أهمها :

١ - أن هذه النظرية توافق جميع الحقائق المعلومة .
٢ - أنها تفسر كثيرا من الأمور التى لا يمكن فهمها الا بواسطة .

٣ - وأنه لم يظهر لها بديل .

وهذه الأسباب نفسها موجودة فى جانب الدين بصورة أكمل ، فلماذا التفرقة اذا ؟ هذا ايمان بغيب وذاك ايمان بغيب .

* * *

وبعد أن وجهنا هذه السهام الى الأساس الأول للماركسية - وهو « المادية » ننقل الى الأساس الثانى وهو : « الجدلية » .
ثانيا : الجدلية :

نحن نسلم بأن الازدواجية هى أساس هذا الكون - والله عز وجل يقول : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (٦) . « سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض أنفسهم ومما لا يعلمون » (٧) . فالانسان ذكر وأنثى - وكذلك الحيوان وقد أثبت العلم الحديث أن جميع أزهار النباتات تجمع بين أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ، وهو

(٦) سورة الذاريات- الآية (٤٩) .

(٧) سورة يس - الآية (٣٦) .

المشار اليه بقوله تعالى : « مما تنبت الأرض » ، كما أثبت العلم أيضا أن الازدواجية موجودة فى الجمادات ، فهى تتكون من ذرات ، وكل ذرة مكونة من « بروتونات » ذات كهرباء موجبة و « الكترونات » ذات كهرباء سالبة .

ومن هنا يتبين أن الاسلام يقول بالازدواجية فى كل شىء ، فهناك الليل والنهار ، وهناك الذكر والأنثى ، والعلم الحديث يثبت أن السالب والموجب يوجدان فى الذرة ، والكهرباء ، والمغناطيس ، والجماد ، والنبات والحيوان ، والانسان - ولكن الازدواجية لا تعنى أبدا التناقض، أى لا تعنى الجدلية ، بل ان الازدواجية فى الكون تعنى التكامل والانسجام ، لا الصراع والخصام ، فعلى أساس من وجود الخير والشر ، والنور والظلام ، والذكر والأنثى ، والسالب والموجب يتم الانسجام والتكامل فى هذا الكون .

فالذكر يكمل نقص الأنثى ، والأنثى تكمل نقص الذكر ، وليس معنى وجود الذكر الى جانب الأنثى أن ينشأ بينهما الصراع والخصام ، كما أن وجود الليل الى جانب النهار لا يعنى تنازع الليل والنهار ، بل يعنى التكامل « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا » (٨) وقل مثل ذلك فى بقية الأشياء . ان التناقض لا يحدث الا بخروج هذه الاشياء عن طبيعتها - فتخرج المرأة مثلا عن طبيعتها أو يخرج الرجل عن طبيعته فينشأ الشقاق والخصام - أما متى عرف كل منهما حدوده ووظيفته وحقوقه وواجباته كان الأمر بينهما كما تشير اليه الآية الكريمة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (سورة الروم ٠ آية ٢١) أن الازدواجية فى الكون

(٨) سورة النبأ - الآيتان (١٠ - ١١) .

انما تعنى التكامل والانسيجام ، لا الشقاق والخصام كما يريد الماركسيون ، وصدق الله العظيم : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » (سورة يس . آية ٤٠) نعم نحن نقول بالجدلية اذا كانت تعنى مجرد وجود الزوجية في كل شىء فهذا مما يصرح به القرآن ، ولكننا نرفض الجدلية التى تعنى التناقض والصراع والتنازع وما ينشأ عن ذلك من تطور ذاتى فان ذلك خروج بالأشياء عن طبيعتها (١) .

* * *

ونحن اذ فرغنا الآن من نقد المبدئين الأساسيين للماركسية ، وهما : المادية والجدلية .

ننتقل الى نقد بعض النواحي الأخرى الفرعية لهذا المذهب :

١ - تذهب الماركسية الى أن فلسفتها قائمة على أحدث القوانين العلمية ، ومنها قانون بقاء الطاقة وتحولها ، وقانون تكوين الأجسام الحية من خلايا قابلة للتطور ومذهب « دارون » فى النسوء والارتقاء ، ومن ثم فهى ترى أن مبادئها حتمية لأنها مؤسسة على القوانين الحتمية للعلم ، ونحن نرى أن قوانين العلم ليست مطلقة ولا ضرورية ولا يقينية ، بل غاية ما تفيده الظن فقط ، ومن الممكن أن تتخلف ، اذ أنها تقوم على استقراء الظواهر وهو استقراء ناقص ، اذ لا يمكن استقراء جميع الظواهر فى كل زمان ومكان ، ومن ثم كانت النتيجة القائمة على هذا الاستقراء غير يقينية ولا حتمية ولا ضرورية بل من الممكن دائما أن تتخلف .

(١) يرجع فى موضوع « الجدلية » ومناقشتها الى كتاب : « أساليب الغزو الفكرى للعالم الإسلامى » - للدكتور على محمد جريشة ومحمد شريف الزبيق - فى هذا الكتاب آراء جيدة فى هذا الموضوع أثبتنا بعضها هنا فى بحثنا هذا . انظر ص ١١٧ - ١١٩ من الكتاب المذكور الطبعة الثانية ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م - دار الاعتصام بالقاهرة .

ثم ان نتائج العلم التجريبي غير ثابتة على حال واحدة ،
فالعلم ينفي اليوم ما كان قد أثبتته بالأمس ، وبالعكس ،
ومنشأ هذا نقص الاستقراء واحتمال الخطأ فى النتيجة .

٢ - يذهب الماركسيون الى أن النظام الشيوعى هو نهاية المطاف ، فهو الذى ينشئ مجتمعا سعيدا ترفرف عليه العدالة المطلقة ويسوده التعاون التام - فهو الجنة الموعودة الأبدية - ونحن نرد عليهم من مذهبهم - فهم يقولون ان المجتمع فى تطور مستمر - تطور قائم على صراع الأضداد ، وهذا يعنى أن النظام الشيوعى هو أيضا سيتطور وينقلب الى النقيض - وهذا تناقض واضح فى مذهبهم .

٣ - بناء على نظرية البناء الفوقى والبناء التحتى يرى الماركسيون أن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية هى التى تصنع الأفكار الدينية والأخلاق - وهى التى تقوم ببناء الانسان فكريا - وهذه الفكرة تلغى ارادة الانسان وشخصيته وتحيله الى مجرد شئ لا حول له ولا قوة ، لا يملك مجرد التفكير فى الابداع بل هو مجبور على أن يفكر بالطريقة التى تسمح بها ظروفه الاقتصادية . وإذا كان الأمر كذلك فكيف استطاع « كارل ماركس » - الذى عاش فى ظل نظام رأسمالى - أن يضع النظرية الماركسية التى تعادى الأوضاع الاقتصادية السائدة فى مجتمعه .

وإذا كان الدين وليد نظام اقتصادى معين ، فلماذا لم تكن الماركسية وليدة النظام الاقتصادى الرأسمالى السائد فى عصرها ؟

٤ - ان من له أدنى معرفة بالتاريخ يعلم أن الأديان كانت دائما هى المؤثرة فى المجتمعات وفى العلاقات بين الناس ومن

بينها علاقات الانتاج ، وليس الأمر بالعكس - وأصدق شاهد على هذا « دين الاسلام » الذى جاء فأقام مجتمعا يختلف جذريا عن المجتمع الجاهلى ، ووضع نظاما اقتصاديا فذا يحقق الازدهار والعدالة الاجتماعية ، ولم يكن الاقتصاد الجاهلى ولا علاقات الانتاج فى مكة هى السبب فى نزول القرآن .

٥ - تدعى الماركسية أنها تعمل على تكوين مجتمع خال من الطبقات ، فى الوقت الذى تولى فيه كل عنايتها لطبقة واحدة من طبقات المجتمع - أعنى طبقة البروليتاريا - فهى تعمل على تركيز السلطة السياسية والسيطرة الاقتصادية والاجتماعية فى يد هذه الطبقة - فكيف تدعى العمل على ازالة الطبقات فى الوقت الذى تمنح فيه طبقة واحدة كل الامتيازات وتحرم كل ما عداها .

٦ - تدعى الماركسية أنها ذات فلسفة شاملة فى حين أن فلسفتها قد وضعت لمصلحة فئة محدودة من فئات المجتمع . فعلى سبيل المثال : الأخلاق الماركسية ، فهى قد وضعت أساسا لخدمة طبقة العمال وتحريضها ضد الطبقات الأخرى فى المجتمع - فهى أخلاق لا أخلاقية - أية أخلاق تلك تثير الحقد فى النفوس ، وتغرس الضغائن فى المجتمع ، وتشعل الحروب بين أبناء البلد الواحد ؟ أية أخلاق تلك التى تفرق بدل أن توحد ، وتغرس الشر بدل أن تزرع الخير وترضى الغرائز الدنيا فى الانسان بدل أن تسمو به فوق المطالب الرخيصة للجسد ؟

٧ - ان نظرية القيمة التى يقول بها الاقتصاد الماركسى - والتى تعنى أن قيمة أية سلعة هى فى مقدار العمل الذى

يبيّله العامل في هذه السلعة - هي محض خرافة - فبناءً على هذه النظرية تكون قيمة قطعة من الذهب مساوية لقيمة قطعة من الحديد بذل فيها نفس العمل الذي بذل في قطعة الذهب - ولا يقول بهذا إلا أحمق .

٨ - مسألة تحول الكم الى كيف هي احدى الخرافات الماركسية ، والمثال الذي ساقوه للماء والبخار لا يعد سنداً لهم ، فان حرارة الماء كيف وليست كما .

٩ - يرمى الماركسيون خصومهم بالرجعية ، في حين أنهم هم أنفسهم يعتمدون على فكر رجعي قد يكون ملائماً لظروف القرن التاسع عشر حيث قام « كارل ماركس » ببشر بمذهبه في ظروف صناعية تعتبر متخلفة جداً اذا قيسست بيومنا هذا حيث كان الاعتماد كله على العامل اليدوى ، ولقد كان هذا العامل يعيش على الكفاف ، أما اليوم فالظروف قد تغيرت تماماً ، فالعامل اليوم لا يبذل جهداً في العمل ، اذ تقوم الآلات المتطورة بالعمل نيابة عنه ، وهو لا يفعل سوى مراقبة الآلة ، كما أن حقوق العمال أصبحت معترفاً بها من الجميع ، بل ان العامل خارج المعسكر الشيوعى يحصل على حقوق وامتيازات لا يتمتع بها زميله المحكوم بالأحزاب الشيوعية ، ويحيا في ظروف مادية ومعنوية تفضل بمراحل الظروف التى يحيا فيها العامل في البلاد الشيوعية .

١٠ - لقد أثبت التاريخ بطلان جميع التنبؤات الماركسية ، فالاعلان الشيوعى الصادر سنة ١٨٤٨ تنبأ بأن « ألمانيا » ستكون أول البلاد التى تقود الثورة الشيوعية بناءً على أن الشيوعية ستظهر أول ما تظهر فى مجتمع رأسمالى صناعى متقدم - ومع ذلك فقد أثبت التاريخ كذب هذه النبوءة حيث قامت الثورة الشيوعية فى بلد زراعى متخلف وهو « روسيا » .

كما أعلن « ماركس » فى سنة ١٨٤٩ أن الجمهورية الحمراء
تبرز فى سماء « باريس » ، وهى لم تبرز حتى يومنا هذا .

كما تنبأ بالصراع بين « البروليتاريا » و « البورجوازية »
فى الدول الرأسمالية ، هذا الصراع الذى ينتهى بالثورة
الاشتراكية - ولكن الذى حدث فى الدول الرأسمالية هو
التقارب بين الطبقات الاجتماعية - بينما الصراع على أشده
بين الدول الشيوعية المختلفة ، وأصدق مثل لهذا هو العداء
المستحكم بين روسيا والصين .

١١ - لقد ظهرت عيوب « الماركسية » بالتجربة العملية ،
وأوضح مثال لهذا أن « روسيا » سادت فيها « الماركسية » نصف
قرن وهى تدعى أن كل شئ على ما يرام ، وأن النظام الزراعى
وتقسيم الأموال ، وتوزيع العمل - قد تمت كلها بصورة خالية
من العيوب وبعبدة عن الاستغلال ، وفجأة - بعد وفاة
« ستالين » - قام سدنة « الماركسية » ينددون بفساد الحكم ،
والظلم ، والاستغلال التى كانت تسود البلاد خلال حكم
« ستالين » الذى كان يتصرف فى شئون الشعب بطريقة لا تقل
فى البشاعة والاستغلال عن مثيلتها فى البلاد الرأسمالية
الاستعمارية - وقد كانت أبواق الدعاية الروسية أيام « ستالين »
تصور للعالم أجمع أن حكمه يمثل أبدع صور العدل
والإنصاف - وهى تقول نفس الشئ عن العهد الحاضر ،
ولا ندرى ماذا سيقال بعده .

١٢ - ان حرمان الفرد من الملكية الخاصة - كما هو الأمر
فى « الماركسية » يؤدى الى ضعف الحافز الفردى ، وبالتالي الى
ضعف الانتاج ، وليس سرا أن « روسيا » التى كانت تقوم
بتصدير ما يزيد عن حاجتها من القمح أيام الحكم القيصرى ،

وكانت تعد من أكبر الدول المصدرة للقمح - هي الآن تستورد القمح في ظل النظام الاشتراكي ، ومن المسلم به أن الانتاج الصناعى للدول الاشتراكية الأوروبية هو أسوأ بكثير من انتاج الدول الأوروبية الأخرى ، فالماركسية اذا هي أحد عوامل التخلف الاقتصادى .

١٣ - تعمل النظم الماركسية على حرمان كل من لا يدين بمذهبها من كافة الامتيازات التى تغدق بغير حساب على أنصارها وأذنابها ، فأعضاء الحزب الشيوعى يملكون من النفوذ الاقتصادى والسياسى والاجتماعى ما لا يقاس بنفوذ الطبقة البورجوازية فى الدول الرأسمالية ، وتصب النظم الماركسية جام سخطها على كل صاحب فكر وقلم بل على المثقفين الذين لا يؤمنون بماركس بصفة عامة ويسمونهم « أعداء الثورة » ومكانهم معسكرات الاعتقال أو المصحات النفسية ، حيث تستخدم أحدث الأساليب لتعذيبهم جسديا ونفسيا .

النظام الاقتصادي في الاسلام

الاسلام لا هو «ماركسية» ولا هو «رأسمالية» ، فهو يولى عنايته للفرد في الوقت الذي يهتم فيه بتماسك المجتمع والقضاء على الاستغلال والاحتكار ، فاذا كانت « الماركسية » تلغى الفرد في سبيل المجموع ، واذا كانت « الرأسمالية » لا تهتم الا بالفرد وحرية المبادرة الشخصية - فان الاسلام يعنى بالأمرين جميعا ، ويقيم نظامه على أساس التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع .

انه لا يسحق الفرد كما تفعل « الماركسية » ، ولا يسمح بالاستغلال والاحتكار كما تفعل « الرأسمالية » ، أنه نظام اقتصادي مستقل ، يقوم على التعاون والتكافل بين جميع أفرادهِ ، وليس على الصراع بين الطبقات ولا على استغلال القلة للكثرة ونعني بالقلة : أعضاء الحزب الشيوعي في النظام الماركسي ، والمحتكرين من أصحاب رؤوس الأموال في النظام الرأسمالي .

ومن أهم ما يميز النظام الاقتصادي الاسلامي

(أ) أنه يعطى أهمية خاصة للفرد وحريته وحقوقه ، ويحمي ماله ودمه وعرضه وكرامته ، ويعتبر الاعتداء على الفرد اعتداء على الأمة بأسرها (١) ، ولا يسمح باهدار حقوق الفرد مهما كانت الأسباب والغايات ، وبالتالي فهو يرفض التضحية بالفرد تحت أي شعار .

(١) « أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعا » . سورة المائدة . آية (٣٢) .

(ب) يرفض الاسلام الاستبداد وحكم الفرد ، كما يرفض تسلط الأقلية على الأغلبية ، ويوجب على الحاكم أن يستشير أهل الحل والعقد - وهم العالمون بالشريعة والحياة - وبتعبير أهل العصر : هم ممثلو الأمة ونوابها - الذين يشترط فيهم العلم والحنكة ، فعلى الحاكم أن يستشير هؤلاء ولا يمضى أمرا دونهم ، كما أمر الاسلام بتسليم مقاليد الأمور الى الأكفاء وان لم يكونوا من أصفياء الحاكم .

(ج) المال فى الاسلام ملك لله ، والأفراد مستخلفون فى هذا المال : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (١) ، ومادام الفرد يؤدى حق المال من زكاة وانفاق فلا ضير عليه فى التملك والاستثمار على أن لا يضر بأحد ، ولا يحتكر سلعة ، ولا يستغل أجيرا ، ولننظر بامعان فى هذه الآيات :

١ - « والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » (٢) فليست الزكاة تفضلا ، وانما هى « حق » للفقراء .

٢ - « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (٣) أى ما زاد عن حاجة الانسان .

٣ - « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى الله فبشرهم بعذاب أليم » (٤) .

٤ - « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٥) .

(١) سورة الحديد . آية (٧) .

(٢) سورة المعارج . آية (٢٤ - ٢٥) .

(٣) سورة البقرة . آية (٢١٩) .

(٤) سورة التوبة . آية (٣٤) .

(٥) سورة الحشر . آية (٧) .

٥ - « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین ، وآتى المال على حبه ذوى القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل والسائلین وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة » (١) .

فبعد ان ذکر ايتاء المال عطف عليه ايتاء الزكاة ، فليست الزكاة فقط هي كل ما يجب اخراجه من المال ، بل ان فى المال حقا آخر سوى الزكاة هو المشار اليه بقوله تعالى : « وآتى المال » الخ ...

(د) يقاوم الاسلام الترف ، ويعتبره من أسباب انهيار المجتمعات : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٢) - وهو بمقاومته للترف يعمل على تضيق الفوارق المادية بين الناس .

(هـ) يعتبر التكافل الاجتماعى أحد أسس هذا النظام ، فمن بات شعبان وجاره جائع لا يعد من جماعة المسلمين ، وفى الحديث الشريف : « من كان له فضل زاد فليعد به على من لازاد له » وقد كان عمر يعطى المولود مائة درهم ثم يزيده الى مائتين ، ويخصص أموالا للانفاق على المرضى ومن لا عائل له .

(و) يقاوم الاسلام تقسيم المجتمع الى طبقات متعادية متقاتلة يتربص بعضها ببعض ويسيطر عليها جميعا الحقد الأسود ، والبدأ الاسلامى هو : « وان طائفتان من المؤمنين

(١) سورة البقرة . آية (١٧٧) .

(٢) سورة الاسراء . آية (١٦) .

اقتتلوا فأصلحوا بينهما» (٣) ، «انما المؤمنون اخوة» (٤) ، وهو بهذا يحفظ للمجتمع تماسكه ووحدته ، ويحميه من عوامل الفرقة والانقسام بينما ترفع الماركسية شعارات الحق والانتقام والعنف الدموى .

(ز) يوصى الاسلام بحسن معاملة الأجير ، ويطلب ممن يستخدم انسانا فى عمل أن يطعمه مما يطعم ، وأن يكسوه مما يلبس ، وأن لا يكلفه من العمل ما لا يطيق ، أو يساعده فى أداء العمل . .

(ح) النظم المادية سواء أكاذت رأسمالية أم اشتراكية تنظر الى المال باعتباره قوة اقتصادية تمكن من التفوق المادى والسيطرة ، وهذا هو كل ما تهدف اليه ، أما الاسلام فينظر الى المال على أنه معين على تقوى الله والعمل الصالح من انفاق فى وجوه الخير ومودة ذوى القربى وحنو على البائسين ، وهذا البعد الروحى يجعل من الثروة نوعا من العبادة اذا جاءت من طريق مشروع وقصد بانفاقها ارضاء الله - وهذا وحده كاف فى تكوين مجتمع خال من الاحقاد والدماء ، يجمع بين القوة المادية والقوة الروحية ، يراقب الله فيما يأتى ويدع ، مجتمع يسوده التراحم والتعاون والتكافل والاستقرار ، ويرفرف عليه الرخاء .

وشتان ما بين مجتمع يقوده شرطى وسجان ، وآخر يقوده ضمير مؤمن : « وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ ، وهو كل على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم » (٥) .
صدق الله العظيم

(٣) سورة الحجرات آية (٩) .

(٤) سورة الحجرات آية (١٠) .

(٥) سورة النحل آية (٧٦) .

(م) - ٦ الفكر الماركسى

خصائص العدل الاجتماعى

كما يراه الاسلام (١)

الأبواق الماركسية يعلو صخبها وضجيجها مرددة صباح مساء أن العدالة الاجتماعية كما يرسمها المنهج الاشتراكى تفوق كل ما عرف فى المناهج الأخرى ، وأن توزيع الدخل فى الاقتصاد الماركسى يقوم على نوع من العدل فريد لا يدانيه فيه أى نظام آخر .

ونحن هنا نحاول أن نعطي القارئ صورة عن ملامح العدالة الاجتماعية كما جاء بها الاسلام ليتضح له سمو هذه العدالة التى يدعو الاسلام الى تطبيقها بدون ضجيج ولا عنف ، ومن غير صراع ولا بغضاء .

فقد عاش الانسان أمدا طويلا وهو يفرق بين القوى الروحية والقوى المادية ، ويذهب الى أن هذه تعارض تلك ، ولا يمكن التوفيق بينهما ، وأصدق مثال لذلك المسيحية المحرفة والبوذية ، اذ تريان ان خلاص الروح لا يتم الا بقهر رغبات الجسد واهماله .

وقد ترتب على هذه النظرة ان أتباع هاتين الديانتين المخلصين لتعاليمهما كانوا ييرون فى المال والثروة قذارة ونجسا ينبغى للمؤمن الحق ان يقتنزه عنهما ما وسعه ذلك . . كانوا يحتقرون طيبات هذه الحياة وينأون بأنفسهم عنها .

(١) انظر : العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، تأليف الاستاذ سيد قطب
ص ٢٠ - ١٦٢ - دار الشروق - ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

حتى جاء الاسلام فقدم للبشرية نظاما جديدا فريدا يجمع بين المادة والروح ، وبين الدنيا والآخرة فى نسق واحد •

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » (١) •

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ • قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (٢) •

لقد جاء الاسلام فوحد بين الروح والمادة ، وبين الدنيا والآخرة ، ولا عجب فهو دين التوحيد •

وهذه الوحدة لا تتم على حساب الروح ولا على حساب الجسد ، فهى لا تقهر هذا ولا ذاك ، بل تترك لكل منهما حريته فى النشاط بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ، وعلى أن تكون الغاية هى خير البشرية وصلاحها •

وكما وحد الاسلام بين الروح والمادة فقد وحد أيضا بين الفرد والمجتمع ، وبين الطبقات ، فالجميع يخضعون لقانون واحد يتجه نحو غاية واحدة : ان يعمل الجميع متضافرين لاصلاح هذه الحياة الدنيا حتى تصلح حياتهم فى الآخرة •

وعلى هذا الاساس المكين من التوحيد تقوم شرائع الاسلام وتوجيهاته فى جميع المجالات ومن بينها مجال المال والاقتصاد •

(١) سورة القصص - الآية (٧٧) •

(٢) سورة الأعراف - الآية (٣٢) •

فالعادلة الاجتماعية كما رسمها الاسلام ليست عدالة مادية
فحسب ، بل هى عدالة شاملة ، تلقى بظلالها الوارفة على جميع
جوانب الحياة الانسانية ، وهى تتغلغل الى الشعور والضمير ،
كما تحكم السلوك •

فهى ليست عدالة اقتصادية فقط ، ولا مادية فحسب ، بل
ان للقيم الروحية فى هذه العدالة مكانا غير منكور •

واذا كانت المسيحية تدعو الى قهر الجسد ورغباته ، واذا
كانت الماركسية لا ترى فى الانسان سوى حاجاته الجسدية
فحسب ، ولا ترى فى الكون سوى المادة وحدها ، فان الاسلام
يتخذ موقفا وسطا يوحد فيه بين حاجات الانسان المادية ،
وحاجاته المعنوية ، توحيدا يتجه الى غاية نبيلة هى صلاح
الدنيا والآخرة •

وانطلاقا من نظرة الاسلام التوحيدية فان الحياة تقوم لديه
على أساس من التضامن والتراحم والتكافل بين المسلمين
بصفة خاصة ، وبين بنى الانسان عموما ، بينما هى لدى
الماركسية شقاق ونزاع وخصام وصراع بين الطبقات
الاجتماعية حتى يتم الانتصار النهائى لطبقة « البروليتاريا »
تلك الطبقة التى تقوم بتصفية كل ماعداها من طبقات •

فالعادلة الاجتماعية فى الاسلام تنهض على دعائتين
قويتين :

١ - الوحدة الشاملة بين المادة والروح •

٢ - التضامن والتكافل بين أعضاء المجتمع •
وهى لا تتجاهل الفطرة الانسانية وما تحمله من أثره

وحرص وحب للمال ، كما لا تتناسى فى الوقت ذاته مصلحة الجماعة ومطالبها ، وتعمل على التوفيق بين حاجات الفرد وحاجات المجتمع حتى لا يطغى جانب على آخر .

فليس عدلا أن تطغى أنانية الفرد وأطماعه على مصلحة الأمة ، بل ينبغى كبح جماح الفرد ونوازعه بالتوجيه والتشريع . . وليس عدلا أن تطغى مصلحة الأمة على فطرة الفرد وقدراته واستعداداته ، وأن تقف حائلا دون تفجير هذه القدرات وتنمية هذه الاستعدادات واستغلالها ، فان ذلك يتنافى مع صالح الفرد بل مع صالح الجماعة ذاتها اذ تحرم نفسها من الافادة من مواهبه وطاقاته .

فالاسلام يطلق حرية الفرد فى استغلال طاقاته ومواهبه على أن لا يضر ذلك بالمجتمع، ولا يتعارض مع المثل الأعلى للحياة كما يريد لها الاسلام - تلك الحياة التى تقوم على التراحم والتضامن ، لا على التناقض والصراع كما يريد الماركسيون .

والعدالة من وجهة النظر الاسلامية تعنى تكافؤ الفرص ، وليس المساواة الاقتصادية بمعناها الحرفى - فالناس متفاوتون فى مواهبهم واستعداداتهم ، وليس من العدل التسوية بين العباقره الموهوبين وبين الخاملين - انها تسوية تناقض الفطرة ، وتعوق أصحاب المواهب عن استغلال طاقاتهم لخير أنفسهم ولخير مجتمعهم .

فالاسلام لا يطلب المساواة فى الثروة ، لان تحصيل الثروة ينهض على أساس من المواهب والطاقات والجهود غير المتساوية ، فمن العدل أن يتفاوت الناس فى الارزاق تبعا لتفاوتهم فى المواهب والاستعدادات .

ومع أن الاسلام يسلم بتفاوت الناس فى الارزاق فهو يطالب باتاحة الفرص المتساوية للجميع والقضاء على اعتبارات الحسب والنسب والعرق .

كما يطالب بتحرير الانسان من سلطان القيم المادية البحتة ، وتجريد هذه القيم من الهالة التى أحاطتها بها المجتمعات التى تقفل من شأن القيم الروحية ، وتجعل من المال الها يذعن له الجميع .

ان الحياة فى نظر الاسلام أسمى من أن تكون مجرد اشباع بطن أو ارضاء شهوة ، ومع ذلك فهو يطالب بأن يكون لدى كل فرد ما يكفيه عن طريق الملكية أو العمل ، ليحرره من سلطان الحاجة وسلطان من يعتقدون أن بيدهم موارد الرزق وأمور الخلق .

فاذا عجز المرء أو قصرت به مواهبه وطاقاته عن أن يكون لديه مايكفيه - فرض له الاسلام حقا فى أموال الاغنياء بقدر حاجته ، ومنشأ هذا الحق هو وحدة المجتمع المسلم وتكافله وتعاونه ، فاذا أملت نازلة بأحد أعضائه أسرع الباكون لنجدته وتخفيف آلامه .

وفى الوقت نفسه يحرم الاسلام الترف ، فهو التربة الملائمة لبذور الفساد والشهوات والانحراف ، وهو يعمل على توسيع الهوة بين مستويات العيش ، وإثارة الاحتقاد والضغائن فى صدور الناس .
ولكن ما المراد بالترف ؟ وما حدوده ؟

نبدأ أولا فنقرر أن الاسلام يضع قيودا لانفاق المال ، فصاحب المال ليس حرا حرية مطلقة فى التصرف فى ماله كما يشاء ، لان مثل هذه الحرية كفيلة بأن تترد اضرارا بنفسه

وبالمجتمع ، فالتقشير والاسراف منهي عنهما فى الاسلام لما
ينشأ عنهما من آثار تسيء الى الفرد والجماعة : « ولا تجعل
يدك مغلوله الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد ملوما
محسورا » (١)

فالامساك عن أنفاق المال يتعارض مع مايدعو اليه
الاسلام من تمتع الفرد بطيبات الحياة المشروعة حتى تغدو
الحياة بهيجة جميلة : « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد
وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المرففين • قل من حرم
زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين
آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الايات
لقوم يعلمون • قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما
بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل
به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون » (١)

فالاسلام يدعو الى التمتع بطيبات الحياة المشروعة فى
غير أسراف والامة مطالبة بأن تهىء ذلك لافرادها جميعا ، ومن
ثم كان للفقير حق معلوم فى مال الغنى – والفقير هو الذى
يملك أقل من نصاب الزكاة – وهو يعطى هذا الحق لكى يتمكن
من التمتع بطيبات الحياة ، لاليعيش عيشة الكفاف •

والاسلام حين يدعو الى الصبر على شظف الحياة فهذا
لا يعنى أنه يدعو الى الحرمان من طيباتها ، بل ان هذا يعنى
أن المسلم لاينبغى أن يهلع ويجزع ويفقد أعصابه عندما تقسو
به الحياة ، بل يبقى ثابت الفؤاد وهو يواجه الازمات الطارئة
حتى يستطيع التغلب عليها •

(١) سورة الاسراء – الآية (٢٩) •

(١) سورة الأعراف – الآيات (٣١ – ٣٣) •

فالمسلم مطالب بأن يأخذ حظه من طيبات الحياة ومتعتها
المشروعة ، ولكن بدون غلو ولا لهو ولا اسراف ، فان ذلك مما
يعين على الاحساس بجمال الكون ، والتأمل فى عظمة الخالق ،
والتسامى بالنفس الانسانية فوق ضرورات العيش ، والتفرغ
للتفكير والابداع .

* * *

ثم أن الامساك عن الانفاق يؤدي الى حبس المال عن
التداول ، مما يعود بالضرر على الأمة ، اذ هى فى حاجة الى
تداول المال لايجاد فرص العمل لابنائها ، وانتاج ماتحتاج اليه
حتى تغدو قوية عزيزة الجانب .

* * *

الاسلام اذا ينهى عن التقثير وغل اليد ، كما ينهى أيضا
عن الاسراف والتبذير ، والمراد الاسراف فى الانفاق على
النفس ، وليس الاسراف فى الانفاق فى سبيل الله ، فلو أنفق
المسلم ماله كله فى سبيل الله فان ذلك لا يعد اسرافا ، وتاريخ
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم زاهر بكثير من
الشواهد .

الاسراف فى الانفاق على النفس هو الترف الذى ندربه
الاسلام ، وأبرزه القرآن فى صور بشعة مموجة .

فالترفون جبنا يفترون عند الشدائد وينهارون اذا جد
الجد : « واذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله
استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين » (١)

(١) سورة التوبة - الآية (٨٦) .

لقد ألفوا حياة التمتع والترهل فضعفت إرادتهم ، وفترت همتهم ، فالحياة عندهم لذائذ وشهوات ومتع هابطة ، والخروج للجهاد يحرمهم من هذه الحياة التي لا يعرفون سواها .

والترفون هم أعداء الانبياء والمصلحين فى كل زمان ، فان حياتهم السهلة الناعمة ، وما يحيطون به أنفسهم من خدم وأتباع يتملقونهم وييسرون لهم سبل اللذات - كل ذلك يدفعهم الى الصد عن سبيل الله ، والتصدى لكل دعوة أصلحية كفيلة بأن تجردهم من امتيازاتهم ، وتحرمهم من ملذاتهم ، وتعريهم أمام أتباعهم الذين يستغلون ضعفهم وحاجتهم وجهالتهم ، وترفع هؤلاء الاتباع فتسوى بينهم وبين ساداتهم فلا يعود لهم عليهم سلطان - بالإضافة الى تبدل مشاعرهم وقسوة قلوبهم نتيجة سلوكهم الحيوانى .

ولنتأمل بامعان هذه الآيات الكريمة :

« وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون ، وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » (١) .

« قال الملأ الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا : ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون » (١)

« أنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا

(١) سورة سبأ - الآيتان (٣٤ - ٣٥) .

(٢) سورة المؤمنون - الآيتان (٣٣ - ٣٤) .

سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن
متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا « (١) •

* * *

والترف سبب للهلاك فى الدنيا والعذاب فى
الآخرة ، اذ هو يؤدى الى البطر - وهو من أسباب استئصال
الأمم : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم
لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » (٢) • كما
أنه ييسر سبيل المعاصى فيؤدى بصاحبه الى الجحيم : « فى
سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم انهم كانوا
ذلك مترفين » (٣)

* * *

وسماح الأمة بوجود المترفين فيها ، يفسدون ، ويعربدون ،
ويشيعون الفاحشه والمنكرات ، وينشرون الميوعة والتخنث ،
ويخربون الذمم والضمائر ، ويقلبون الموازين ، ويحطمون
المعنويات - يؤدى بطبيعته الى الدمار والسقوط : « واذا أردنا
أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول
فدمرناها تدميرا » (٤)

* * *

والمستوى العام لحياة الأمة هو المقياس الذى يعتمد
عليه لمعرفة حد الترف والشطف ، والضمير المسلم هو الذى
يمسك بهذا المقياس ، وهو ضمير لا يضل ولا يزيغ •

(١) سورة الفرقان - الآيتان (١٧ - ١٨) •

(٢) سورة القصص - الآية (٥٨) •

(٣) سورة الواقعة - الآيات (٤٢ - ٤٥) •

(٤) سورة الاسراء - الآية (١٦) •

والمسلم بعد هذا كله مطالب بأن يتسامى فوق متاع الحياة حتى لا يتحول الى عبد ذليل ، والنبي صلى الله عليه وسلم يصور ذاك الذى يتكالب على الحياة ، ويتضاءل أمام متعتها حتى تغدو كل همه ، ومبلغ سعيه ، ومنتهى أمله - يصوره فى صورة العبد الرقيق : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » (١) .

أجل لقد نكس نفسه ، فبدل أن يتعالى على متع الحياة ، فيتمتع بها تمتع السيد بما يملكه ، اذا به يهبط ويهبط حتى تتملكه هى وتحوله الى عبد ذليل يلهث وراءها ، ويريق ماء وجهه على قدمها .

(١) رواه البخارى .

الماركسية وموقفها من الاسلام

كان « ماركس » يعتبر أن الدين هو أفيون الشعوب ، وأنه حليف طبعى للبورجوازية تستغله فى تخدير الفقراء وحثهم على الرضا بواقعهم الاليم ، وتثبيط همهم عن الانتفاض والانقراض على مستغليهم وجلادهم •

ولئن كانت الاوضاع الدينية فى « أوربا » آنذاك قد تسوغ لماركس وأتباعه هذا الموقف من الدين – فمن تزييف للعقيدة المسيحية ، الى صكوك الغفران ، الى محاكم التفتيش الى اضطهاد للعلماء والمفكرين ، الى تضخم الثروات فى أيدي كبار رجال الدين وتأبيدهم لطغيان الملوك والحكام ، ووقوفهم الى جانب المترفين ، وتجردهم من كل شعور بالعطف على البؤساء والمحرومين – كل هذه المهازل قد تبرر لماركس موقفه العدائى من الدين السائد فى مجتمعه – ولكنه بدل أن يدعو الى اصلاح دينى يرد الناس جميعا الى حظيرة الله – نجده يصم الدين كله بهذه الوصمة : « أفيون الشعوب » ، ويعمم الحكم على الدين ككل ، وقد كان الاجدر به أن يقصر حكمه على الاوضاع الدينية الفاسدة المحيطة به فى وطنه – والاسلام برىء من ذلك كله •

وقد بقى عداء « الماركسية » للدين قويا علنيا فترة طويلة من الزمن ، حتى اذا ما بدأت أطماعها تمتد الى ديار الاسلام أتخذت موقفا مرحليا تهادن فيه الدين ولاتهاجمه وتتملق فيه أتباع الدين طمعا فى أستمالتهم وكسب تأييدهم ، وتزيد على ذلك دعواها أن من الممكن بل من الواجب عقد نوع من التوفيق بين الاسلام « والماركسية » •

وهذه دعوى فى غاية الخطورة قد يندفع بها بعض السذج والاعرار، فالاسلام دين له نظامه الخاص فى مختلف جوانب الحياة: الروحية والاقتصادية والتشريعية والسياسية والثقافية ، وما يفرضه الاسلام من حلول فى هذه المجالات المتعددة يختلف جذريا عن الحلول الماركسية ، فالقول بالتوفيق بين الاسلام « والماركسية » هو محاولة للجمع بين نقيضين لا يلتقيان •

وان الواقع العملى يفضح هذه الاكذوبة ، ويصم دعائها والمروجين لها بالنفاق والخداع والوصولية رغبة فى تخدير المسلمين حتى يتمكنوا هم من السيطرة على مقاليد الأمور •

فلم تكن « الماركسية » فى يوم من الايام صديقة للمسلمين، وتاريخ « الماركسية » منذ البدء - عندما كانت مجرد نظرية ، وبعد أن أصبحت لها دولة بل عديد من الدول - يؤكد أن عداء « الماركسية » للاسلام هو أشد وأقسى من عدائها لاي دين من الاديان - ولعل السبب فى هذا ماتراه « الماركسية » من تمسك المسلمين القوى بعقيدتهم ، وما تعلمه من أن الشعار الذى ترفعه - والذى يدعو الى أنصاف الفئات الكادحة المطحونة - قد سبقها اليه الاسلام منذ قرون ، وأن العدالة الاجتماعية فى الاسلام هى أتم وأكمل مما تدعو اليه « الماركسية » ، وأن تطبيقها يتم بدون عنف ومن غير اراقة للدماء ، ولا اثاره للحقد والشحناء ، هذا بالاضافة الى أن الاسلام بعيد عن الكهنوت وصكوك الغفران ، برىء من أضطهاد العلم والعلماء •

من أجل ذلك كله تولى « الماركسية » الاسلام مزيدا من العداء •

والشواهد التاريخية كثيرة نكتفى بذكر أمثلة قليلة منها : -

وفى التركستان قتل الماركسيون سنة ١٩٣٤ مائة ألف
مسلم ، ونفوا ثلثمائة ألف مسلم ، ومات ثلاثة ملايين جوعاً
بعد أن أستولوا على محاصيلهم .

وفى بلاد القرم قتلوا مائة ألف مسلم جوعاً فى عام واحد
(١٩٢١) .

وفى الصين صدر منشور فى أكتوبر عام ١٩٦٦ يدعو رجال
« الحرس الاحمر » أن يهاجموا أكثر الاعداء تخفياً الذين يقومون
بنشاط ضد الحزب الشيوعى - أى المسلمين .

ويوجه المنشور حديثه الى المسلمين قائلاً : دمروا
مساجدكم ، أحرقوا القرآن ، كفوا عن الصلاة ، أدرسوا أفكار
« ماو » (الزعيم الصينى) - اذا لم تندمجوا سنطردكم
وندمركم » .

وفى يوغوسلافيا قتل الشيوعيون ٢٤٠٠٠ مسلم عقب
الحرب العالمية الثانية مباشرة .

وما يقوم به الماركسيون من حكام « أثيوبيا » ضد شعب
أرتيريا المسلم لايزال يتردد صداه كل يوم .

وما فعله الماركسيون فى « الصومال » المسلم من أحراق لعلماء
المسلمين ويفعلونه اليوم فى « عدن » المسلمة لا يحتاج الى تعليق .
وما نبأ « أفغانستان » عنا ببعيد .

فكيف نصدق دعوتهم الى التوفيق بين الاسلام
والماركسية ، وصادقتهم للمسلمين وهم اذا مكنوا فى
الارض أهلكوا الحرث والنسل ، ودمروا المساجد ، ومزقوا
المصاحف وأحرقوا المسلمين ؟ .

ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

كلمة أخيرة

وبعد ...

فان اشفاقنا على أمتنا الاسلامية الراقدة لا تدرى ما يفعل بها ، ولا ما يخبأ لها - هو ما حدانا الى تسطير هذه الصفحات .

انها صيحة نذير ، ولعلها لا تذهب فى واد !

فالأخطبوط الماركسى يخطط من أجل تطويق هذه الأمة ، واطفاء جذوة الايمان فيها .

وهو يفعل ذلك بتنسيق مع قوى أخرى ، من الغباء والبلاهة أن نسقطها من الحساب .

فأمتنا الضائعة تمر بنفس الظروف التى مرت بها عادة الحرب العالمية الأولى حيث وزعت تركة « الرجل المريض » على الأمم الاستعمارية ، التى اختلفت على كل شىء ، واتفقت علينا .

وأخطأونا اليوم هى عين أخطاء آبائنا شهود تلك المأساة : فرقة وانقسام ، وحقد وخصام ، وتدابر وتقاطع ، بل وسيف يغمد فى لقاء العدو ويشهر فى وجه المسلم . وما حدث بالأمس يوشك أن يحدث اليوم فيصبح المسلمون واذا هم يرعون الخنازير !

ومن العجب أن يحدث هذا كله اليوم ، وقد كان يرجى أن تصبح الأمة الاسلامية احدى القوى العظمى التى توجه هذا العالم وتفرض كلمتها عليه .

وان لديها من الطاقات المادية الهائلة ، والتراث الروحي الفذ ،

والموقع الجغرافى الفريد - ما هو كفيل بأن يبوئها مقعد الشمس لو أرادت .

ولكنها أبت الا أن تحطم نفسها بيديها ، وتبدد ذلك كله .
فلا المادة أيقنت ، ولا التراث حفظت ، أما الموقع فأصبح نكبة عليها .

وقد غدا واضحا لكل ذى عين أن القوى العظمى (شرقيا وغربيا على السواء) قد تفتحت شهيتها هذه الأيام لالتهام هذه « الطبخة » التى أصبحت جاهزة ، ولا ينقصها سوى التوقيت .

هذا بينما المسلمون غارقون فى الأوهام والأحلام !

يحسبون أن النصر سيأتيهم على يد هذه القوة أو تلك ،
ومادروا أن الجميع يتسابقون لابتلاعهم !

ولم يعتبر المسلمون بما حدث لباكستان عام (١٩٧١)
حيث تواطأ عليها عباد البقر مع عباد البشر ، ووقف حلفاؤها
الغربيون يتفرجون بل ويشمتون !

ألا فليعلم المخدوعون أن أمة فى الأرض لن تنصفهم ما لم
ينصفوا هم أنفسهم !

* * *

وليس معنى تنديدنا فى هذا الكتاب « بالماركسيين » أننا
راضون عن موقف خصومهم من « الغربيين » من الاسلام
وقضاياه .

فنحن نعلم أن غاية الجميع واحدة ، وأن هدفهم واحد ، وإن
اختلفت الوسائل والمسالك •

فلعل أمتنا الإسلامية تفيق من نومها وتدرک ما يراد بها !

ولعل مأساة « أفغانستان » تكون هي النذير العريان !

« ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل
علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا
ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت
مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » (١) •

صدق الله العظيم

(١) سورة البقرة • الآية (٢٨٦) •

مراجع الباب الثاني

- ١ - سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الاسلام *
- ٢ - د. علي محمد جريشة ومحمد شريف الزبيق : أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي *
- ٣ - د. محمد البهي : الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي *
- ٤ - د. محمد البهي : تهافت الفكر المادي القاريحي بين النظر والتطبيق *
- ٥ - د. مصطفى محمود : الماركسية و الاسلام *
- ٦ - د. مصطفى محمود : لماذا رفضت الماركسية ؟
- ٧ - وحيد الله خان : الاسلام يتحدى *
- ٨ - علي عبد العظيم : الاشارات الطمعية في القرآن - مقال بجريدة الأهرام (١٩٧٩/٣/٩) *